

البعد الإصلاحي في الخطاب العقدي عند ابن باديس

أ. العطري بن عزوز

جامعة الجلفة

ملخص

الأمة الإسلامية دائماً في أمس الحاجة إلى مجددين، في كل زمان ومكان يجددون الدين والعقيدة، لإحياء منهج خاتم الأنبياء في الدعوة إلى الإيمان بالمفهوم القرآني، ولذلك نجد رجال الإصلاح في كل زمان ومكان يسعون إلى التجديد، كل حسب رؤيته، والبيئة التي يعيش فيها، وطبيعة الفساد المؤثر في مجتمعه، لهضة الأمة واستعادة مقوماتها، والإصلاح الذي قام به ابن باديس في الجزائر يتعلق بتصحيح العقيدة وتقوية الإيمان، وربطها بالواقع من أجل التغيير، لإيمانه بأن البعد الروحي هو الأساس للبناء الحضاري، ولذلك كان خطابه العقدي يرسخ العقيدة الإسلامية في النفوس، ويعتبر الإيمان هو المحرك الفاعل في تكوين الذات، حيث يحول المسلم إلى عنصر إيجابي في مجتمعه، ينهض في بناء حضارة أمته.

ومن خلال تفسيره لآيات القرآن ينهج الأسلوب العلمي في استنباط دروس العقيدة. والخطاب العقدي هو خطاب يعتمد على الحجّة والبرهان والأدلة النقلية والعقلية، فهو يجمع بين المعرفة العقلية والمعرفة الوجدانية، كما أنه يزيل التعارض بين الوحي والعقل.

ملخص باللغة الأجنبية:

The Islamic Nation always need renewing ، in every time and place renew of religion and belief, to revive the curriculum of the seal of the prophets to call

for faith in the concept of the Holy Quran, therefore we find the men of reform in every time and place seek to renovation, each according to his vision, the environment, the nature of corruption and influential role in society, the rebirth of the nation and the restoration of its components, and reform by the Son in Addis in Algeria to correct the creed and the strengthening of faith, and linked to the reality for change, it believed that the spiritual dimension is the basis for the construction of civilization, was therefore nodal speech establishes the Islamic creed in souls, and faith is the engine of the perpetrator in the formation of self - reliance, where Muslim converts to a positive element in society, promote In building a civilization nation

Through interpreted Koran verses pursues the scientific approach to devise the lessons of faith. And the nodal speech is a speech depends on the proof and evidence and evidence when contracts kept within the mental, it combines mental knowledge and knowledge and empathy, as it removes the incompatibility between the inspiration and the mind.

مقدمة

من معاني وأهداف التجديد فى الفكر الإسلامى، الرجوع بالدين الإسلامى إلى سابق عهده نصاً وفهماً والتزاماً وتبليغاً، من أجل تحقيق مراد الله تعالى ورسوله، وفق نموذج تطبيقى عرفته الأمة الإسلامىة، وهو أنموذج الرعيل الأول من الصحابة بشهادة الرسول ﷺ نفسه فى قوله: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)¹

وما أخبر عنه النبي ﷺ حدث فعلاً، حيث دخل الدين كثير من الاختلاف المذموم الذى فرق الأمة شيعاً وأحزاباً ومذاهب، وعلق بالعقيدة الإسلامىة كثير من البدع والخرافات والأساطير الوافدة من الهند واليونان والفرس والرومان، أثرت تأثيراً بالغاً فى صفاء ونقاء

العقيدة الإسلامىة، مما استدعى الأمر إعادة النظر والتجديد، فى صياغة العقيدة من جديد، وفق المنهج الذى رسمه صاحب الرسالة، ونبي هذه الأمة ﷺ بما يخدم أهداف العقيدة الإيمانية، ومقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية، والبعد العقدي له الدور الفعال فى صياغة الإنسان الحضارى، الذى يحل مشاكل أمتة، ويقف عند مواطن الفساد، ويضع الحلول المناسبة، ويتحدى المصاعب.

فالأمة الإسلامىة دائماً فى أمس الحاجة إلى مجددىن ومصلحين، فى كل زمان ومكان يجددون الدين والعقيدة، تجديدا يخص مواطن الانحراف والفساد والضلال، وإحياء منهج خاتم الأنبياء فى الدعوة إلى الإيمان بالمفهوم القرآنى، ووضع منهجية جديدة تسير العصر الحديث، دون المساس بالثوابت القطعية التى أقرها القرآن والسنة وإجماع الأمة.

ومما ثبت فى الأثر أن الإيمان يبلى ويضعف فى قلب المرء من أثر الشبهات والشهوات، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " إِنْ لَللّهِ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" ²

وأمام هذه التحولات الخطيرة التى عرفتها الأمة الإسلامىة، شمر عددٌ من رجال الإصلاح عن سواعد الجدِّ والتجديد، وخاضوا معارك فكرية ضارية، كل حسب رؤيته ومرجعيته الخاصة به، والبيئة التى يعيش فيها، وطبيعة الفساد المؤثر فى مجتمعه، إنها معارك الإصلاح والتجديد، وإنهاض الأمة بسواعد أبنائها وجهودهم المخلصة، ولعل أهم محور استقطب جهود مفكرى الإصلاح فى تلك المرحلة التاريخية كان محور إصلاح فهم العقيدة الإسلامىة على اعتبار أن هذا الإصلاح هو المدخل الضرورى لإصلاح التفكير الإسلامى عموماً. وعلى إثره تبدأ عمليات إصلاح الواقع فى المجتمعات الإسلامىة.

وما قام به المصلح والمجدد العلامة عبد الحميد بن بادىس، من إصلاح وعطاء متجدد فى ربوع الجزائر، يدخل فى معنى الحديث السابق، حيث تعرضت الجزائر المسلمة لهجمة شرسة

من قبل أكبر عدو للإسلام والمسلمين، قاد الحملات الصليبية فى القديم والحديث، وكان هدفه طمس الهوية الجزائرية وسلخها من انتمائها العربى والإسلامى، وزرع الفتنة بين العرب والأمازيغ.

لمحة عن حياة ابن باديس وفكره:

يعتبر عبد الحميد بن باديس، من رواد النهضة العربية الإسلامية، ومن أبرز النجوم اللمعة فى المغربى العربى، وبعض الباحثين الغربيين يجعله أقوى شخصية فى العالم الإسلامى فى الفترة التى ظهر فيها³، ولعل ذلك راجع لبراعته فى التأثير فى كامل المجتمع الجزائرى.

ولد عبد الحميد بن باديس بتاريخ 1889، بمدينة قسنطينة، التى كانت ذات شهرة علمية تعليمية تضاهى شهرة تونس والقاهرة.. وما ذكرت قسنطينة إلا وذكر مؤسس جمعية العلماء الجزائريين، الشيخ بن باديس، وأقرانه الذين قادوا كئائب الجهاد وتقدموا قوافل الشهداء، انتقل إلى تونس، ودرس بجامع الزيتونة حيث أخذ العلم عن علمائه ومن أبرزهم محمد الطاهر بن عاشور، ثم إلى الحجاز وعاد إلى الجزائر، تأثر ابن باديس بشيخه حمدان الوئيسى الذى أوصاه بقوله: (اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة)

بدأ ابن باديس يرسم لنفسه خطة إصلاحية، بلورها من خلال زيارته لبعض البلدان وتأثره بعلماء عصره، ثم تفاعله مع المجتمع الجزائرى ومتطلباته، والأحداث التى عاينها، حيث اهتدى إلى موطن الداء والدواء بقوله: (... رأينا كما يرى كل مبصر، ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط فى الخلق، وفساد فى العقيدة، وجمود فى الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال فى الوحدة، وتعاكس فى الوجهة، وافتراق فى السير، حتى خارت النفوس القوية وقترت العزائم المتقدمة، وماتت الهمم الوثابة ودفنت الآمال فى صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل، والبأس المميت).⁴

فعبد الحميد بن باديس مفسر للقرآن تفسيرا سلفيا براعي فيه مقتضيات العصر، معتمدا على بيان القرآن للقرآن، وبيان السنة له، وأصول اللغة، وتطور التاريخ، وهو محدث لا يستشهد إلا بالأحاديث الصحيحة المسندة للبخاري ومسلم والموطأ الذي اهتم به واعتبره منهجه في الاستدلال، وأسلوبه سهل يفهمه كل المخاطبين، يستولى على النفوس ويملك العقول، وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع، ويدعو إلى النهضة والحضارة، ويغرس الأخلاق التي هي جوهر المدنية، وهو صحفي يقضي ليله في إعداد المقالات وقراءة الجرائد والمجلات العربية الجزائرية والأجنبية، ويعلق عليها، وهو مؤرخ يحلل الحضارة، وينقد مقدمة ابن خلدون، وهو صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه، متأثرا بالغزالي، وابن العربي، ونجد ذلك في كتابه " العقائد الإسلامية " الذي لم يسلك فيه مسلك الفلاسفة ولا منهج المتكلمين، وإنما نهج طريق القرآن في الاستدلال، وأساليبه في الرد والمجادل، ذلك المنهج الذي يتلاءم مع الفطرة الإنسانية فتستجيب له وتطمئن إليه، ويرى أن الظواهر الاجتماعية تخضع لمبدأ الأسباب والمسببات⁵

معظم آثار ابن باديس نشرت في الصحافة، سواء في الصحف الوطنية أو بصحافته المستقلة، وأبرزها مجلة الشهاب وجريدة البصائر، التي كرس افتتاحيتها لنشر مختارات من دروسه التفسيرية والحديثية تحت عنوان " مجالس التذكير " وقد صدر له بعض الرسائل مثل "العقائد الإسلامية" و"مبادئ الأصول"، توفي -رحمه الله- 16 أبريل 1940.

منهجية الخطاب الباديسي في الدرس الإصلاحي:

كانت منهجية ابن باديس هي التركيز على الأفكار الصحيحة، ولو كانت قليلة والابتعاد عن المسائل الخلافية، كما ذكر الإبراهيمي بقوله: (كانت الطريقة التي اتفقنا عليها سنة 1913 في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نزيهه على فكرة صحيحة)، وينتقد ابن باديس

مناهج التعليم التي كانت سائدة بقوله: (واقترضنا على قراءة الفروع الفقهية، مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفني الأعمار قبل الوصول إليها)⁶.

وقد تميز خطابه بالبساطة والسهولة، ليكون أنفع وأسرع إلى الأذهان، وأبعد عن الممل والسآمة، وتناول خطاب ابن باديس جوانب مختلفة، كالجانب الاعتقادي، والجانب التعبدية، والجانب الاجتماعي، والجانب التعليمي... مع شمولية في الخطاب لمختلف فئات المخاطبين رجالاً ونساءً، صغاراً وكبيراً، وهو خطاب عملي، حيث كان ابن باديس في الوقت الذي يقدم فيه الدروس التعليمية، يطبقها بيده ويدعو إلى التطبيق الميداني، وكان قدوته في ذلك النبي ﷺ الذي يقول: (إن الله لم يبعثني معتاً ولا ومعتتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً)⁷

فكان خطابه يحمل عدة خصائص في الوقت نفسه، يتميز بالانفتاح والتجديد ويحافظ على الجود والانغلاق، ويحافظ على الهوية العربية الإسلامية، وهذا ما جعل البشير الإبراهيمي يتأثر بشخصية ابن باديس حينما زاره بقسنطينة ورأى بعينه النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس، واعتقد من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها مستقبل مؤثر في المجتمع الجزائري، وقد تأثر كل منهما بالحركة الإصلاحية في المشرق التي كانت تدعو إلى إصلاح عقلائي، يوفق بين الإسلام والعالم الحديث.

وخطاب ابن باديس العقدي، كان واضحاً جلياً من تفسيره للقرآن الكريم، وكان يرى أن تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم، لذلك آثر البدء بتفسيره درسا يخاطب من خلاله الجماهير، لكي يعجل بالتغيير والإصلاح، كمن يعجل بالدواء للمريض بمحاولة إحياء القلوب اليأسة والحائرة، وبعث فيهم روح الإيمان الصحيح المولد للطاقة الجهادية ضد المستعمر، وتطهير تلك العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشرك والأوهام والأباطيل التي شوهتها، وجعلت الدين كما لو كان مضاداً للعقل، ولهذا فقد حارب الطريقة المنحرفة، وأنشأ مجلة "المنتقد" فكانت نارا موقدة عليهم، ونورا يهتدى به.

وكان ابن باديس يدعو من خلال خطبه فى المساجد والنوادي، ومقالاته التى ينشرها فى الصحف والمجلات، إلى إصلاح العقائد الإسلامية، وشرح المصطلحات، وحل القضايا على نمط سلفى واضح، بصريح نص الكتاب والسنة الصحيحة، لا برأى الجبرية والقدرية وغير ذلك من الآراء الفلسفية.

ويعرفنا صاحبه فى درب الإصلاح البشير الإبراهيمي، بمنهجه الإصلاحى، وخاصة فى جانبه الاعتقادى بقوله: والإمام -رضي الله عنه- كان منذ طلبه للعلم بتونس قبل ذلك - وهو فى مستقبل الشباب - ينكر بذوقه ما كان يبني عليه مشايخه من تربية تلامذتهم على طريقة المتكلمين فى العقائد الإسلامية، ويتمنى أن يخرج تلامذته على الطريقة القرآنية السلفية فى العقائد يوم يصبح معلما، وقد بلغه الله أمنيته: فأخرج للأمة الجزائرية أجيالا على هذه الطريقة السلفية، قاموا بحمل الأمانة من بعده، ووراءهم اجيالا أخرى من العوام الذين سعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية، وقد تربت هذه الأجيال على القرآن، فهجرت ضلال العقائد وبدع العبادات)⁸.

ويذكر لنا تلميذه المخلص محمد الصالح رمضان منهجه الإصلاحى فى خطابه العقدى بقوله: (نخبر طريقة فى تعليم العقائد فى التوحيد هى طريقة الشارع الحكيم المبنية على مراعاة الفطر الإنسانية السليمة، البعيدة عن الأوضاع والتقنيات البشرية التى تعب الأوائى فى وضعها وأتعبوا الناس فى فهمها، وعلى هذا سار الإمام ابن باديس الذى وضع العقائد على أسس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، ولو تفرغ بن باديس للتأليف لجاءنا منه الشيء الكثير.)⁹.

ويلاحظ المستشرق الفرنسى ماسينيون على الاتجاه الفكرى فى المغرب الإسلامى أنه مصطبغ بالصبغة العملية وأن الناحية العقيدية محتفظة بصلابتها الموروثة عن صدر الإسلام¹⁰

أسس النهضة والحضارة عند ابن باديس

يرى ابن باديس أن المنطلق الأساسي للتقدم والنهضة والحضارة هو الجانب العقدي، ويفهم ذلك جلياً من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّعُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الأعراف: ٩٦

فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمنا بهما نكون قد اقلعنا عن أسباب العذاب، ولا نهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه، ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته، ولنبداً من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر اخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا ولا قانطين من رحمة ربنا، وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا، ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويصيرنا بالعلم، ويفقهنا في الدين، ويهديننا إلى الآخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الآخرة، وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزير¹¹.

فقد بين من خلال تفسيره للآية السابقة أن تطور المجتمع والوصول به إلى مستوى الحضارة الإنسانية يمر عبر مراحل وأسس يجب أن تتحقق وهي:

- تحقيق ثنائية الإيمان والتقوى، وذلك لتجنب أسباب الانهيار الاقتصادي والتخلف الحضاري، والتي سماها بـ "العذاب".
- التعاون الشامل أفراداً وجماعات أثناء تحقيق عملية الإصلاح، والتي تبدأ بالفرد وتنتهي بالجماعة لقوله تعالى: ﴿أَبْجُ بِحَبْجٍ بِمَبْجٍ تَجْتَمِعُ تَهْتَمُّ الرَّعْدُ: ١١﴾
- تطهير العقيدة من كل ما علق بها من الشريكيات للأخذ بأسباب الفوز في الدارين.

- التحلي بالأخلاق الفاضلة، والشعور بالمسؤولية واثقان العمل.

1- تحقيق معاني الأخوة الإسلامية لقوله تعالى: **أَنْجِحْ نَحْمَ الْحَجَرَاتِ**: ١٠

2- التفاؤل وعدم اليأس والقنوط بتأخر النتائج، قال تعالى: **أَلَمْ يَلْمِ لِي مَعْ مَخْمَخٍ**

مِمَّنْ مِي نَجَّحْنَاهُ فَلَاحٍ نَحْمُ نِي نِي هَجْ هَمَّ هِي هِي مَجَّحْ يَوْسُفَ: ٨٧

- المرجعية الأساسية في كل أمر القرآن الكريم والسنة الشريفة.

فالإصلاح الشامل عند ابن باديس يبدأ بتصحيح العقيدة وتقوية الإيمان والصدق مع الله تعالى، واستحضار رقابته في كل زمان ومكان، لإيمانه بأن هذا البعد الروحي هو حجر الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه بقية هياكل البناء الحضاري للأمة، وذلك لما لهذا الجانب من أهمية بالغة - إيجابا وسلبا - على قدرات الأمة المعنوية والمادية، وانعكاسات ذلك على مختلف مناحي حياتها في هذه الدار وفي الدار الآخرة، وهذا التصور الذي آمن به هو الذي جسده واقعا في حياته الإصلاحية، من خلال ما قام به من مجهودات وأعمال وما صدر عنه من مواقف، وسجلها في ميدانه الدعوي، وغيره من ميادين جهاده ونضالات مشروعه منذ المراحل الأولى التي شهدت بوادر الحوار والمناظرة بينه وبين بعض المبتدعين في الدين، وعلى امتداد أكثر من ربع قرن من الزمن.

أهمية الخطاب العقدي في حياة ابن باديس الإصلاحية:

والخطاب العقدي يرسخ العقيدة الإسلامية في النفوس، ويعتبر الإيمان هو المحرك الفاعل في تكوين الذات وبلورة الشخصية التي تنطلق لتحقيق أهداف العملية التربوية والتعليمية برمتها، ويتحول المسلم إلى عنصر إيجابي في مجتمعه، ينهض في بناء حضارة أمته.

وما يميز الخطاب العقدي عن غيره، كونه خطاب يعتمد على الحجّة والبرهان والأدلة النقلية والعقلية، فهو يجمع بين المعرفة العقلية والمعرفة الوجدانية، كما أنه يزيل التعارض بين الوحي والعقل.

ولذا كان ابن باديس يعتبر أن إصلاح فهم العقيدة، هو جوهر كل أنواع الإصلاح، إنه إصلاح فهم المسلمين لعقيدتهم، وربط هذا الفهم بالواقع، من أجل دعوتهم ودفعهم إلى تغييره، وإصلاحه من كافة الوجوه، ومن خلال تفسيره لآيات القرآن ينهج الأسلوب العلمي في استنباط الدروس العقديّة.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن هاجس ابن باديس في دراسته قضايا ومسائل العقيدة والتوحيد كان هاجساً إصلاحياً تغييرياً، ولم يكن هاجساً معرفياً محضاً، مثل معظم علماء الكلام، وأهم ما يميز به خطاب ابن باديس في إصلاحه العقدي:

1- يستفتح خطابه بالحمد والشكر لله تعالى على نعمة العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، والصلاة والسلام على النبي صاحب الرسالة وأكرم الرسل، يقول في خطبة افتتاح دروس التفسير: (الحمد لله الذي جعل الإنسان باليان، وجعل البيان بالقرآن..وأشكره هداانا واجتبانانا، فرضينا بالله ربا، وبالإسلام ديننا، وبمحمد نبيا، وبالقرآن اماما..وأصلي وأسلم على محمد أشرف خلقه)¹²

2- لم يلجأ في خطابه أو كتاباته إلى حشد المصطلحات الكلامية المعروفة في مصنفات علم الكلام، بل اكتفى بالقليل والضروري منها، عوناً منه للطالب والقارئ على الوصول إلى معاني كتابه بسهولة، وهذا ما جعل الناس يلتفتون من حوله ويقرؤون مقالاته وكتاباته لما لها من فائدة عامة، ونلاحظ في أسلوبه الاهتمام بالدرجة الأولى بإصلاح فهم المسلمين

لعقيدتهم أكثر من اعتناؤه بالقضايا والمسائل العقدية الشائكة والخلافية، بصورة وأسلوب علمى عملى عميق يمن.

3- انتهج ابن باديس منهج السلف فى تناول مسائل العقيدة أى المنهج القائم على التسليم بظاهر النصوص الثابتة المتعلقة بالعقيدة، وما يستند للعقل فى فهم العقائد وتثبيتها فى النفوس من خلال النظر فى الكون، كما يقرر تلهيذه المخلص محمد الصالح رمضان فى تقديمه لرسالة " العقائد الإسلامية " بقوله: (..طبعت العقائد الإسلامية بطريقة سلفية لا لبس فيها ولا غموض، مستمدة كلها من الكتاب والسنة لا غير بخلاف كتب التوحيد والعقائد التى تشعب فيها البحث والنظر واتخذ ألوانا من الفكر الفلسفى المستمد من الثقافات الأجنبية والديانات المختلفة، هذا فضلا عن كتب العقائد للطوائف والفرق الدينية كالشيعية والخوارج والمرجئة.. وأما هذه العقائد فهى مستمدة من كلام الله والثابت الصحيح من حديث رسول الله ﷺ فقط لا من كلام فلان أو رأى فلان، وهى الطريقة المثلى فى هداية الناس إلى معانى الإسلام والإيمان والإحسان وعقائد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر)¹³

4- مفهوم التوحيد عند بن باديس، يستلزم تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية هو العلم بأن لا خالق غيره ولا مدبر للكون ولا متصرف فيه سواه، وتوحيد الألوهية وهو العلم بأنه تعالى هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، والقصد والتوجه والقيام بالعبادات كلها إليه¹⁴، وبهما تصلح الأعمال، يقول فى تفسير قوله تعالى: أنفى نفى تى تى كا كل كم كى كى لم الإسراء: ٢٢

5- (التوحيد هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذى لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا به، وما أرسل الله رسولا إلا داعيا إليه ومذكرا بحججه..فهى الله الخالق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكا فى ألوهيته فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنه الاله وحده فيعبدوه وحده، وإن

اعتقدوا معه شريكا وعبدوه معه فإن عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردود عليهم..¹⁵ وابن باديس لم ينظر إلى مفهوم التوحيد ك مفهوم مجرد، ولم يشغل نفسه بالإشكالات المتعلقة بهذا المفهوم، مثل مشكلة تأويل الأسماء والصفات التي انشغل بها معظم علماء الكلام، بل تقصّى آثار هذا المفهوم في حياة الإنسان، وركز جهوده حول تتبع الآثار الفكرية والاجتماعية لهذا المفهوم.

6- وأما مفهوم الإيمان عنده فهو: (عقد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح الظاهرة والباطنة، وكل واحد من الثلاثة يسمى إيمانا باعتبار، ويسمى إسلاما باعتبار آخر، فعقد القلب يسمى إيمانا لأنه تصديق، ويسمى إسلاما لأن عقد القلب على الشيء إذعان وخضوع له، ونطق اللسان بالشهادتين يسمى إيمانا لأنه دليل على التصديق، ويسمى إسلاما لأنه دليل على الخضوع والانقياد)¹⁶

فالإيمان عند ابن باديس يتداخل مع مفهوم الإسلام ولا يمكن الفصل بينهما، مستدلا على ذلك بقول النبي ﷺ: (هل تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟) " قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَقَامُ الصَّلَاةَ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةَ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطِيَ الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ)"¹⁷

7- أدرك ابن باديس ان أعمال الجوارح لا تستقيم إلا باستقامة القلب، لذلك اهتم بإصلاح العقائد مما علق بها من ادران الشرك ومظاهره، ومثل هذا الانحراف كان منتشرا في ربوع الجزائر، وبتشجيع من المستعمر، حيث انتشرت الطرقية المنحرفة وشيدت القباب، وبنيت عليها المساجد مظهرين فيها أنواعاً من الشركيات، مثل تقديم القرابين، والاستغاثة بأصحاب القبور ممن يعتقدون فيهم الصلاح، والطواف والتمسح بها، وأكثر من ذلك انتشار أفكار عقديّة خطيرة مثل ما سمي بعقيدة الحلول بفعل المروجين لها من أتباع الطرقية في الجزائر، حيث قال ابن باديس: [... فليتقدم إلينا الحلوليون وشيخهم ومن لف لفهم،

وكثر سوادهم في اليوم الموعود والمكان المعين لهم، وليبادروا بإعلان ذلك في جريتهم إن كانوا صادقين، فإن لم يفعلوا، وأحسب أن لن يفعلوا، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، وكانوا من الظالمين، والحمد لله رب العالمين [18]. فابن باديس يستنكر الاعتقاد بوحدة الوجود والاعتقاد بالحلول، لتناقضهما مع عقيدة التوحيد.

خاتمة

الحقيقة أننا مهما كتبنا عن العلامة ابن باديس رحمه الله فإننا لا نوفيه حقه، باعتباره أحد أعلام العصر الحديث بما أوتي من علم وإيمان وأخلاق عالية وحب لدينه ووطنه، فقد كان منهجه الإصلاحي وخطابه العقدي مستمد من القرآن والسنة، وكان له صدى في أوساط المجتمع الجزائري، وساهم مساهمة فعالة في إخراج المستعمر، بمداد العلماء ودماء الشهداء. والسؤال الذي يطرح نفسه ماذا فعل أحفاد ابن باديس من بعده؟ هل استمروا في حمل مشعل العلم والإيمان لنقل الجزائر من التخلف والحرمان إلى المجد والحضارة والتقدم؟ هل المعاهد والجامعات قامت بالدور الريادي لتطوير المجتمع، ونخص الجامعات الإسلامية بوجه خاص؟ هل استمرت على منهجية بن باديس، أو قامت بتطويرها بمراعاة التطورات العلمية والاجتماعية والاقتصادية الحالية؟.

الواقع يشير إلى أننا تخلينا عن هذا الدور الذي كرس ابن باديس حياته من أجله، وأمسى تحصيل العلم مطلوباً للوظيفة لا للعلم، ولو اطلعنا على المقررات الدراسية، وخاصة مقررات العقيدة نجد أنها أكثر صعوبة من مقررات الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وأمست العقيدة في حس الكثيرين تعني التعقيد، بسبب مصطلحاتها الفلسفية، ولم تعد العقيدة تبعث في كثير من الأحيان على الاطمئنان القلبي، والاستقرار الفكري، والتفاعل السلوكي، بل على الشك والتردد الذي عاناه كثير من الفلاسفة والمتكلمين قديماً، وسجلوا اعترافهم بذلك،

فإدانة العقيدة عبارة عن جدل ونقاش لا يكاد ينتهي، واقتراضات لا يكاد يتصورها عقل، ثم أجوبة واعتراضات، وأجوبة تلك الاعتراضات، واعتراضات تلك الأجوبة وأجوبتها، وهكذا إلى ما لا نهاية.

إذن فنحن بحاجة ماسة إلى تغيير لغة الخطاب العقدي في عصرنا، والاقتداء بمنهج ابن باديس في الإصلاح التربوي والتعليمي، في مدارسنا ومعاهدنا، وما المنهج الباديسي إلا نسخة استمدها من منهج القرآن والسنة، ولذا أثبت نجاحه في واقع الناس، واستطاع بن باديس أن يؤثر في المجتمع الجزائري، وأن يخرج على يديه نخبة من الطلبة ساهموا في نشر العلم والمعرفة في الجزائر، ويمكن أن نعمل على تطويره وتهذيبه بما يتوافق مع التطورات الحديثة في جميع المجالات.

نتائج البحث وتوصيات:

- 1- ابن باديس جعل العقيدة هي المحور الأساسي في خطابه الإصلاحي الدعوي، من حيث المضمون ومن حيث الشكل، فقام بصياغة الدرس العقدي صياغة على ضوء الكتاب والسنة، ودعا إلى تصحيح اعتقاد الناس الذي دخله كثير من التحريف.
- 2- الاعتماد على منهج بن باديس في الإصلاح العقدي، والذي استمده من القرآن والسنة، باعتماد لغة القرآن وأسلوبه ومنهجيته في تأسيس الإيمان وفي مخاطبة العقل والوجدان على حد سواء.
- 3- ربط العقيدة بالواقع، وإعادة صياغة العقيدة لتقوم بدورها في تربية الأمة، وزرع محبة الله ومحبة لقائه، والشوق لما أعدده لأهل طاعته في جنات النعيم، وزرع الخوف منه تعالى ومن عقابه، فقد خلت كتب العقيدة من التعرض لهذه القضايا إلا في سياق مجادلة المنكرين للبعث والرد على شبهاتهم.

4. ربط قضايا السلوك بالمعتقد، على أنها أثر من آثار الإيمان الصحيح، وقد تكون من لوازمه قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إبراهيم: ٢٤ - ٢٥

5- بصياغة الخطاب العقدي من جديد، نستطيع أن نقدم البديل لعجز المذاهب الإنسانية عن استيعاب الحياة البشرية، وتلبية حاجاتها على اختلاف ألوانها وتحولاتها، والتأكيد على حاجة البشرية سابقا ولاحقا إلى الوحي الإلهي.

الحقيقة أن هذا التعاقب بين العقيدة والواقع، الذي جاء به بن باديس، إنما هو عودة أصيلة للمقصود الرئيس من هذه العقيدة أصلا كما جاء في القرآن الكريم الذي قرر أن المقصد من إنزال هذا الدين، الذي تشكل العقيدة المحور والأساس فيه، هو تغيير حياة الناس وإصلاح أحوالهم وشؤونهم في الدنيا والدار الآخرة على حد سواء، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾﴾ الإسراء: ٠٩

هذا ونسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم
- 2- كتب السنة
- 3- ابن باديس، مجالس التذكير، دار البعث، الجزائر 1982، ط: 1، مج: 1
- 4- ابن باديس، العقائد الإسلامية، دار الفتح، الشارقة 1995، ط: 1
- 5- التبريزي، مشكاة المصابيح، تح: الألباني، المكتب الإسلامي 1985، ط: 3، مج: 1

- 6- أحمد محمود الجزائر، الإمام المجدد ابن باديس، منشأة المعارف، الإسكندرية 1999، ط: 1
- 7- ابن القيم، زاد المعاد فى هدى خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج: 1، ط: 25
- 8- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية، الجزائر 1997، ط: 1، مج: 2، ج: 1
- 9- محمد بن محفوظ الشنقيطي، جواهر الدرر.. دار ابن حزم، بيروت 2005، ط: 1

هوامش:

- 1- رواه أبو داود والترمذي، عن العراب بن سارية ت، وقال حديث حسن صحيح، التبريزي، مشكاة المصابيح، نخ: الألباني، المكتب الإسلامي 1985، ط: 3، مج: 1، ص: 58 .
- 2- أخرجه أبو داود، التبريزي، مشكاة المصابيح، المرجع السابق، ج: 1، رقم الحديث: 247، ص: 82
- 3- أحمد محمود الجزائر، الإمام المجدد ابن باديس، منشأة المعارف ن الإسكندرية 1999، ط: 1، ص: 8
- 4- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية، الجزائر 1997، ط: 1، مج: 2، ج: 1، ص: 24
- 5- عمار الطالبي، آثار ابن باديس، السابق، ج: 1، ص: 91- 93
- 6- محمد بن محفوظ الشنقيطي، جواهر الدرر .. دار ابن حزم، بيروت 2005، ط: 1، ص: 16
- 7- ابن القيم، زاد المعاد فى هدى خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج: 1، ط: 25، ص: 96
- 8- ابن باديس، العقائد الإسلامية، دار الفتح، الشارقة 1995، ط: 1، ص: 15
- 9- ابن باديس، العقائد الإسلامية، السابق، ص: 10
- 10- عمار طالبي، آثار ابن باديس، الشركة الجزائرية 1997، مج: 1، ص: 61
- 11- ابن باديس، تفسير ابن باديس، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ط: 2، ص: 126 .
- 12- ابن باديس، مجالس التذكير..، مج: 1، ص: 48
- 13- ابن باديس، العقائد الإسلامية ..، ص: 13
- 14- ابن باديس، العقائد الإسلامية ..، ص: 66
- 15- ابن باديس، مجالس التذكير..، دار البعث، الجزائر 1982، ط: 1، ص: 95
- 16- ابن باديس، العقائد الإسلامية،، ص: 43- 44
- 17- رواه البخاري ومسلم، ابن باديس، العقائد الإسلامية، وقال: لم يذكر الحج لأنه لما يفرض إذ ذاك، ص: 42
- 18- كلمة كتبها، يشكر فيها الشيخ الطيب العقي على مقاله فى جريدة الشهاب، ردا على الطريقة .